الفصل الأول

المشكلة اليهودية

كانت جماعات قليلة من اليهود قد ظلت مقيمة في فلسطين بعد أن أصبحت جزءًا من الدولة العربية الإسلامية، وكان معظمهم من المتدينين الذين اقتصرت رغبتهم على ممارسة شعائرهم الدينية؛ وذلك انطلاقًا من إيمانهم بفكرة بعث الدولة اليهودية في فلسطين بحدوث معجزة إلهية، يظهر معها السيد المسيح المنتظر الذي سيعيد بناء «هيكل سليمان» ويقود العالم نحو الخير والسلام[1].

وغدا مركزهم الرئيس هو منطقة الجليل، حيث أسسوا في فترة من الفترات مدارس دينية، ولكن مركز التجمع اليهودي، كان قد انتقل إلى بلاد ما بين النهرين قبل الإسلام بعدة قرون، وظل هنالك عندما خضعت تلك البلاد التي عرفها العرب باسم العراق للحكم العربي الإسلامي.

ثم انتقل إلى إسبانيا، وكانت وقتئذ تحت حكم العرب

(١) أمين محمود عبدالله (الدكتور)، «نشأة النزعة الاستيطانية في الفكر اليهودي الغربي خلال القرن التاسع عشر»، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، العدد الثاني، يوليو ١٩٧٩ ص ٠٩.

المسلمين أيضًا. وفي العصور الحديثة، أصبح مركز التجمع اليهودي في شرق أوربا، وبخاصة في الأقاليم المحيطة بمدينة بنسك الروسية، وهي تقع في أوكرانيا في أقصى غرب الاتحاد السوفيتي وقريبة من حدود بولندا ورومانيا والمجر ويوغوسلافيا. وبقيت الأقاليم المحيطة بمدينة بنسك pinsk، وتقع داخل دائرة مركزها هذه المدينة وقطرها ستمائة كيلو متر حولها، مركز تجمعات يهودية كبيرة في أواخر القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين[١].

ومهما يكن من أمر فإن اليهود قد انطلقوا في صراعهم معنا من منطلق عقائدي؛ لأنهم عرفوا منذ البداية - وهذا هو الصحيح - أن العقيدة هي حجر الزاوية في أي صراع. أما العرب المسلمين فكأني بهم قد خشوا أن يصفهم العالم بالتعصب، فعزفوا حتى عن مجرد الإشارة إلى ذلك العداء المستحكم بين العقيدتين الإسلامية واليهودية مع أنها أمر واقع لا يمكن تجاهله.

وتأسيسًا على ما تقدم، فإن اليهود قد عملوا على تربية

(١) السيد رجب حراز (الدكتور)، صفحات من تاريخ الصهيونية وإسرائيل، القاهرة ١٩٧٢، ص ١٣.

أبنائهم في العصر الحديث تربية إرهابية مستوحاة من كتبهم المقدسة وبروتوكولاتهم وغيرها لكي يصلوا إلى تحقيق أهدافهم بحل المشكلة اليهودية وهي جمع شتاتهم في بقعة واحدة من الأرض، ألا وهي فلسطين، تلك التي اختاروها لتكون وطنًا قوميًا لهم ونجحوا في الحصول على السند الدولي لتأييدهم في ذلك[١].

ولذا فإن اليهود الذين نزحوا إلى أوربا قد تعرضوا للاضطهاد منذ أيام الإمبراطورية الرومانية، بسبب رفض الجماعات اليهودية المتدينة الاندماج في المجتمع الروماني. وبعد انتشار المسيحية لم يتوقف اضطهاد اليهود، إذ اعتبر هؤلاء مسؤولين عن دم السيد المسيح. وأكسبهم نشاطهم التجاري والمالي وما يتصل به من عمليات الإقراض والربا الفاحش وسلوكهم الشائن الذي يقضي باستغلال غير اليهود، وذلك بسبب عقيدتهم، والصفات التي ذكرناها عنهم جعلت اليهود يحملون عداءً دائمًا لغيرهم من الناس، وقد امتلأت قلوبهم بالأحقاد نتيجة لتلك العقائد العنصرية المزيفة؛ ولذلك فقلما تمر فترة من الزمان إلا ورأيت اليهود يقومون بمذابح

(١) المرجع نفسه.

ضد غيرهم من الشعوب أو بواسطة حكام آخرين. كما أنه قلما تمر فترة من الزمان إلا وتقرأ عن مذابح لليهود على أيدي الشعوب الأخرى وذلك كرد فعل لتصرفاتهم وأحقادهم ضد تلك الشعوب واستغلاليتهم. ولعل من أهم الدوافع إلى هذا الحقد الذي يدفع إلى القتل وسفك الدماء هي وصيتهم الجامعة في كتبهم الدينية: «اهدم كل قائم، لوث كل طاهر، احرق كل أخضر، كي تنفع يهوديًا بفلس»[١].

أثارت تصرفات اليهود سخط المجتمعات الأوربية باعتبار أن تسلط اليهود التجاري وجشعهم المالي هما مصدر ما تعانيه الطبقات الكادحة الفقيرة من بؤس وفاقة. وقد صحب ذلك عدم الاطمئنان إلى ولاء اليهود وإخلاصهم، وبذلك اتخذ اضطهاد اليهود في أوربا مظهر الدفاع عن النفس[٢].

وتناول الاضطهاد الذي أصاب اليهود مظاهر شتى، ففرضت عليهم قيودًا قسرية اجتماعية واقتصادية وسياسية، وحرم عليهم امتلاك الأراضي ومزاولة الكثير من المهن الحرة، فضلاً عن حرمانهم من الحقوق السياسية، وعدم السماح لهم

(١) رفيق النتشه، الإسلام وفلسطين، الرياض ١٩٨٠، ص ٢٨-٢٩.
(٢) السيد رجب حراز، صفحات من تاريخ الصهيونية وإسرائيل، ص ١٣.

بالإقامة في بعض المدن، مما ترتب عليه انعزال اليهود عن الحياة انعزالاً كاملاً في أقاليم خاصة بهم، بل وأقاموا في المدن في أحياء مخصصة لهم، عرفت باسم «الجيتو Ghetto». وفي معظم الحالات كانت تحيط بهذه الأحياء أسوار وحوائط عالية، كان الدخول والخروج منها محدودًا، إن لم يكن معدومًا. وفي الحالات النادرة، التي كان يتجول فيها أحد أفراد «الجيتو» خارج الأسوار فإنه لم يكن يحس بالأمان التام - إذ كان العالم خارج هذه الأسوار - وهو يختلف تمامًا عما هو داخلها - لذا لا يمكن أن يأمن له، فهو فاتر على أحسن الأحوال ومعاد على أسوئها. أما الطمأنينة والدفء فهما فقط داخل الأسوار. ولم يكن الانعزال داخل الأسوار ماديًا فحسب، ولكن كانت له مضاعفاته الاجتماعية والنفسية[1].

ولعل مرد ذلك ما ارتكبه اليهود من مجازر عبر التاريخ ضد المسحيين، ففي عام ٢١٤م قتل اليهود مئتي ألف مسيحي في روما وكل النصارى في قبرص. وفي زمن البابا كليمان قتل اليهود في روما وخارجها جملة من النصارى بأعداد كبيرة. وفي عام ٣١٥م ذبح اليهود من المسيحيين ٢٠٠ ألف في ليبيا

(١) السيد رجب حراز (الدكتور)، صفحات من تاريخ الصهيونية واسرائيل، ص ١٤.

و٢٤٠ ألف في قبرص. وفي عام ٣٥٥ قتل الإمبراطور جميع النصارى في روما بناء على دسائس الحاخام «يهوذا».

ولا غرابة في أن تقوم المذابح ضد اليهود كرد فعل لأعمالهم الوحشية والمذابح التي قاموا بها في المجتمعات التي يعيشون فيها، ولاقى اليهود العديد من المذابح الانتقامية في أوربا بسبب سوء أعمالهم وتدخلهم في شؤون الدول الأوربية. فبريطانيا طردتهم منذ أول القرن السادس للميلاد ومنعت دخولهم إليها مدة ثلاثة قرون. وفي فرنسا طرد اليهود وحرق تلمودهم في عهد لويس التاسع بسبب كيدهم للشعب الفرنسي، كما طردوا من إسبانيا والبرتغال وحرموا من الدخول إلى البلاد منذ عام ١٤٩٢م، وذلك بسبب ما ألحقوه بالمسيحيين من ضرر وبسبب محاولاتهم لهدم الكاثوليكية والهزؤ والسخرية منها، وقد دام هذا الطرد خمسة قرون. ولعل هذا يفسر موقف إسبانيا من عدم اعترافها بالكيان الصهيوني حتى الآن، وقامت مذابح ضدهم في روسيا وألمانيا مؤخرًا[1].

وفي الوقت الذي كانت فيه مذابح اليهود كثيرة الوقوع في أوربا، كان اليهود يجدون في البلاد الإسلامية أطيب معاملة،

(١) رفيق النتشه، الاسلام وفلسطين، ص ٢٨-٣١.

ويعتبرونها الملجأ الآمن لهم، ومنحت لهم وهذا يرجع إلى تسامح الدين الإسلامي مع أتباع الديانات الأخرى، مما يدحض التهم التي يوجهها اليهود بأننا نحاربهم من أجل ديانتهم. وحقيقة الأمر أننا لا نحارب اليهود لأنهم يهود أو نحاربهم بسبب عقيدتهم، فالعالم الإسلامي والعربي وخاصة الفلسطينيون ليس عندهم تعصب مذهبي أو طائفي، ولكن حينما يتحول اليهود إلى صهاينة فإنهم يستولون على الأرض وينتهكون العرض، فعندها سيضطر المسلمون بعامة والعرب بخاصة إلى محاربتهم، وسيكون الفلسطينيون الذين ذاقوا مرارة النكبة منهم أشد الناس حربًا عليهم[1].

وعلى العموم، فقد ظل اليهود موضع احتقار وكراهية المجتمعات الأوربية حتى أواخر القرن الثامن عشر، حتى ظهرت معاني جديدة في الحياة الإنسانية، كنتيجة لانتشار مبادئ الحرية والمساواة والإخاء في أعقاب الثورة الفرنسية، وما ترتب على ذلك من تأكيد حقوق الإنسان. وهيأ هذا الجو الفكري الذي غمر أوربا فرصة لتحرير اليهود وانطلاقهم من العزلة والانطواء إلى التحرر والاندماج مع المجتمعات التي

(١) إسماعيل ياغي (الدكتور) الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، ص ٢١.

يعيشون بين ظهرانيها. ومنذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر اختفت الاضطهادات ضد اليهود في غرب أوربا، أو قلت إلى حد كبير. وباختفاء الاضطهاد والتفرقة في غرب أوربا، تكسرت الجواجز التي كانت تفصل بين اليهود وغيرهم، مما سهل عمليات التفاعل والانصهار الاجتماعيين وتحطم نظام الجيتو[١].

وهكذا تحسنت أحوال اليهود في أوربا الغربية، وأصبحوا دستوريًا واقتصاديًا مواطنين عاديين بعد إلغاء القوانين المقيدة لحرياتهم منذ عام ١٧٩١م في فرنسا، ثم في معظم الدول الأوربية، وقد ساعدت التجمعات اليهودية في غرب أوربا على التحرر والاندماج اتجاه مجتمعات أوربا الغربية نحو العلمانية، وفصلها بين الدين والدولة، واعتناقها للمبادئ الليبرالية والديمقراطية التي هيمنت على الفكر السياسي الأوربي الحديث[٢].

أما التجمعات اليهودية في شرق أوربا، فقد ظلت - شأنها شأن الأقليات في روسيا القيصرية ترزح تحت وطأة التمييز والاضطهاد المستمر من جانب القياصرة الروس. وكان اغتيال

(١) السيد رجب حراز (الدكتور)، صفحات من تاريخ الصهيونية وإسرائيل، ص ١٦.
(٢) المرجع نفسه.

قيصر روسيا إسكندر الثاني في ١٣ مارس ١٨٨١م، والذي حملت السلطات الروسية اليهود مسؤولية اغتياله، هو الشرارة التي أشعلت جذوة الأعمال المعادية لليهود، أو ما أطلق عليه «حركة معاداة السامية The Anti Semitic Movement» فلم يمض بضعة أسابيع على اغتيال القيصر، حتى فتحت أبواب الجحيم على مصاريعها لتبتلع اليهود[١].

وانتشرت حركة اضطهاد اليهود من روسيا إلى بولندا ورومانيا. وكان من أبرز مظاهر هذه الحركة في روسيا مذبحة كيشينيف والمناطق المجاورة. وبقي وضع اليهود في شرق أوربا على هذا الحال من الاضطهاد والتعذيب حتى نشوب الثورة البلشفية (١٩١٧م)، الأمر الذي أوجد ما عرف «بالمشكلة اليهودية»، وقصد بها إمكانية بقاء اليهود دون اضطهاد في المجتمعات التي يعيشون فيها[٢].

والحقيقة أن هذه المشكلة شعر بها يهود شرق أوربا، حيث سادت حياتهم العزلة والاضطهاد، أما يهود غرب أوربا فكانوا قد خطوا خطوات واسعة نحو الاندماج في المجتمعات الغربية،

(1) Roth, Ceil, Ashort History of the Jewish People P. 386.

(2) Ibid.

وأصبح من حقهم أن يتولوا وظائف الدولة وأن يزاولوا من الأعمال ما يشاؤون، وأن يسكنوا حيث يريدون. وبلغ الأمر أن أصبح أحد اليهود رئيسًا للوزراء في إنجلترا وهو بنيامين دزرائيلي Disraeli ونشأت بيوتات مالية لهم في فرنسا وإنجلترا، من أكبرها بيت روتشيلد Rotschild وأصبح لهم شأن كبير في الحياة الاقتصادية والمالية.

وانبرى اليهود وهم بارعون في الدعاية والإعلام - في تجسيم صورة الاضطهاد الذي لاقوه حتى جعلوا الباحثين والمؤرخين والكتاب يعتقدون أنه لم يكن في تاريخ الحياة الأوربية على مدى هذه الأجيال ما هو أفظع وأشنع من المظالم التي حلت باليهود؛ وانطلقت صيحات من أنحاء مختلفة من أوربا تنادي بحل مشكلة اليهود وذلك بعودتهم إلى فلسطين - أرض الميعاد كما يزعمون - واحتوت هذه الصيحات الصهيونية وجسدتها إلى واقع عملي ملموس[١].

(١) السيد رجب حراز، صفحات من تاريخ الصهيونية وإسرائيل، ص ١٧.